فرانسوا فيوري والليبرالية السوداوية

بقلم بيار هاسنر
ترجمة عياش سلمان

من منّا، شأنه في ذلك شأن كاتب هذه المقدمة، وقد أعاد قراءة جميع ما كتب فرانسوا فيوري عن القرن العشرين، دفعة واحدة، بعدما كان قد قرأ أغلبها على مدى فترات طوال أربعين سنة من الصداقة والتواطؤ الفكري، لا يُصاب بالانبهار لوحدتها في التنوع واستمراريتها في التغيير.

كيف يمكن أن نقرأ دون انفعال هذه الخلاصة التي اختتم بها مقالا عن أندري غلوكسمان في عام 1975 – أي قبل عشرين سنة من صدور كتابه "الزمن الماضي للوهم" - الذي يسطر به برنامجه: "ينبغي أن تكون لنا الشجاعة، انطلاقا من كل ذلك الغضب العارم والمبهم إلى حد ما وتلك الصرخات الأدبية التي كان لها على الأقل الفضل في إيقاظ تيار اليسار السياسي في الغرب من وقاره الذي طال أمده، في الإحجام عن القيام بالتنبؤات الجديدة بل القيام بتحديد نقطة انطلاق تاريخ القرن العشرين الحقيقي. ولقد آن فعلا أوان إجراء جرد عقلاني لماضينا القريب بدل القدح في الآمال التي خاب فيها الرجاء".

وفي غضون ذلك كانت قد حدثت مراحل تعاقَبَ فيها صدور مؤلفات فرانسوا فيوري والأعمال الجماعية التي أشرف عليها وأحدثت بعدئذ ثورة في تفسير الثورة الفرنسية. كما كانت قد حدثت عنايته المثابرة التي كرسها في آن واحد للأحداث السياسية وللنقاشات الفكرية، وفي آن واحد لتطور فرنسا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وإسرائيل، وفي آن واحد للبعد السياسي للتفسير التاريخي وللبعد التاريخي للتفسير السياسي.

مؤرخ من جيل الوهم الثوري

إن كل العمل الثوري لفرانسوا فيوري يبين مدى متانة الصلة الوثقى بين هذين البعدين والطابع المحوري لهذه الصلة. ولقد صرح لدى استلامه جائزة توكفيل بأن نقده للتقاليد الثورية يتأتى من "البلبلة العارمة والحديثة التي شهدها مجتمعنا". وأقر بذلك بالجانب الذي طبعته سيرته الذاتية لما اختتم مقدمة كتابه "الزمن الماضي للوهم" قائلا: "إنه بعد أن تقاسم مع الآخرين هذا الوهم على مدى عشر سنوات خرج وفي نفسه بداية تساؤل عن الحماس الثوري ومحصّنا من التوظيف الديني المزعوم في مجال النشاط الثوري". وكان ذلك هو التساؤل والسلوك اللذان هيمنا على كل عمله التاريخي والسياسي.

أما على الصعيد المنهجي فإنه يبرر تضافر هذين المنهجين من خلال ما كتب: "لا توجد مفاهيم تشرح الماضي إلا وتحمل في طياتها جزءا من الحاضر وتؤرخ بالتالي لزمن المؤرخ. ولكن على العكس، لا توجد مفاهيم أصلا بلا فكر يعبر عن الزمن الحاضر". وفي المقابل، فإن هذا الشكل الخام للتغيير الذي نطلق عليه اسم "الحدث" لا يوجد من يعبر عنه أحسن من المؤرخ الذي له ما يؤهله ليسبغ عليه غرابته انطلاقا ممّا يحمله هذا الشكل من تطابق مع الماضي، ويمكنه بذلك أن يمسك بالعنصر المتواتر وبالحصة المكملة الجديدة".

إن هذا التقارب يطبقه فرانسوا فيوري قبل كل شيء على الثورتين الكبريين الفرنسية والسوفييتية اللتين يهيمن حضورهما على عمله. وهو بذلك لا يحاول التقريب بين هذه وتلك، بل يصرح بأنه "يخالف كليا هذا النمط من المفارقة التاريخية" وهو يرفض على سبيل المثال، إسقاط مفهومي النظام الشمولي والكلياني

والإبادة الجماعية على النزعة اليعقوبية وعلى حركة فاندي. بل يمكننا القول بأن هدفه المفضل كان يتمثل في الخلط بين الثورتين الذي يقوم به من خلال التفسير السوفييتي للثورة الفرنسية ومن خلال الشعور الذي كان يحدو البلشفيين في أن يعايشوا مرة أخرى في ثورتهم نفس المراحل التي مرت بها الثورة الفرنسية.

وبصورة أعمّ، فإن موضوعه الحقيقي ينحصر بدرجة أقل في الثورة الفرنسية والثورة السوفييتية مما ينحصر في الإثارة التي مارساها عليه، ولا سيما استمرار تلك الإثارة، وذلك حتى بعد فشل كلتا الثورتين. إن ما يجدّ في طلبه قبل أي شيء يتمثل في تقصي "عدم إحساس الناس بالتجربة التاريخية"، وكذا "طريقتهم في ترميم بقايا معتقداتهم للحفاظ على أوهامهم". وبالمختصر المفيد، إنه يرفض بداهة الوقائع من خلال التعلق اللامشروط بنظام ما أو بحلم معين. بل هو ينشد قبل كل شيء هدف تاريخ الوهم خصوصا لدى المثقفين، ولا سيما الفرنسيين منهم، الذين باعد الزمان والمكان بينهم وبين الحدث.

ومن خلال فعله هذا، يقوم بلا شك بتوسيع دائرة خطابه ويتحفنا، بطريقة غير مباشرة، إلى حد ما، بتفسيره الخاص لجذور الثورتين أو لآثارهما، وللحقبة التي طبعاها والحقبة التي تلتهما. ولم يفعل ذلك بحكم السبب الذي اتهم به على أساس أنه حاول إهمال البنى الاجتماعية أو الحركيات الاقتصادية أو الصراعات من أجل السلطة. بل كان ذلك، من جهة، بدافع إعادة بيان مركزية العمل السياسي الذي تعرض في الغالب إلى الإهمال، ولا سيما على يد مدرسة الحوليات التاريخية. كما كان ذلك، من جهة أخرى، وخصوصا، بدافع الغوص بأصالة وعمق في الموضوع الكبير الذي كان قد مهّد له على الخصوص كل من توكفيل وإيلي هاليفي وريمون هارون، والمتعلق بالعلاقة الموجودة بين الأفكار والأهواء، بدءا من الأهواء الديمقراطية والأفكار الثورية.

أزمة الديمقراطية الليبرالية

لقد نتجت عن ذلك بعض المفارقات التي سنتعرض لها بالتفصيل فيما يأتي. إن هذا الملاحظ العقلاني والمتعقل قبل كل شيء، والمتزن والهادئ، الذي يعترف عند كتابته مؤلف التفكير في الثورة الفرنسية، أنه "يسعى إلى إيلاء عناية فائقة للحياة السياسية التي تحدوها نزاهة عاطفية"، يجعلنا ندرك بصورة رائعة، وخصوصا في عهدنا هذا، مدى صعوبة الفصل بين الجانب السياسي والجانب العاطفي. وذلك خصوصا لما يتحول هذا المؤرخ الصحفي بكل سهولة إلى فيلسوف.

وبالانتقال من الفلسفة إلى السياسة فإنه يوفق في بضع صفحات دامغة في الدخول إلى صلب الموضوع المركزي للفلسفة السياسية على النحو الذي طرحها بها روسو نفسه، فيما يخص العصر الحديث، وهو موضوع بناء وحدة اجتماعية وسياسية على أساس تحرر الأفراد والفصل بينهم. ويؤدي كل ذلك بالشخص الليبرالي المتفرد إلى تشخيص مصدر النظام الشمولي، شيوعية كانت أم فاشية، في أزمة الديمقراطية الليبرالية ووصف هذه الأزمة بالعجز السياسي وربما حتى العجز الروحي المتصل بالليبرالية.

إن المناسبات القليلة التي يحدث أن يخطئ فيها لا تكاد تكون إلا بحكم التناقض بين شخصيته المنزهة عن الدوغمائية والفظاظة، والحكم الفلسفي الإجمالي الذي تؤول به إليه ملاحظاته وأفكاره. وتلك هي اللحظات النادرة والعابرة التي يستسلم فيها لوهم الاعتقاد بأن معاصريه، ولا سيما منهم أبناء بلده، قد أصبحوا على شاكلته.

ويفصح عمّا يجول في خاطره بصورة مباشرة من خلال مقالاته وحواراته على صفحات مجلتي النقاش) حيث يمكن أن نلاحظ هذه الشدة وذلك التوتر. غير) Le Débat الملاحظ) و) L'0bservateur أن ما يظل ثابتا هي كامل حريته في الحكم على التيارات الفكرية على كونها تطورات سياسية، تلك الحرية التي يطبعها اهتمامه بالأحداث والابتعاد الساخر عن الأساليب والتصرفات الشمولية أو التسلطية، الدرامية أو الدوغمائية، سواء كانت رومانسية أم منهجية أم أخلاقية. وتتمثل همزة الوصل في الفراغ الذي تركه زوال الشيوعية الذي ينظر إليه بنفس النظرة التي ينظر بها إلى ماضيه الخاص به "بلا تسامح ولكن بلا جفاء". ويمكن أن يعتبر الشخص الوحيد من ضمن الشيوعيين القدامى الذي لا يستسلم لا إلى هوى الحنين ولا إلى السعي إلى البحث عن سراب الاستبدال أو الانعكاس المانوي أو البوليسي، بل هو شديد التمسك بالأفراد أكثر من تمسكه بالأفكار المجردة، محتفظا في ذلك طوال حياته بالصداقات القديمة وموطدا أواصر علاقات جديدة في منأى عن التطورات الإيديولوجية المختلفة المشارب، ومع الانتقاد المهذب للشخصيات الجديدة التي تظهر للوجود ومع تعاطف أقل مع النزعات الامتثالية المتعاقبة والمتناقضة.

وفي هذا المضمار أيضا تبدو المقارنات بين العقود من الزمان مليئة بالدروس والعبر. وفي مقال لافت للنظر حرره في عام 1975 وعنوانه "المثقفون الفرنسيون والبنيوية" عرف كيف يبين بجلاء مدى تمكن الانقياد وراء عبادة البنية من الحلول محل زوال الأوهام في التاريخ والذاتانية. وفي عام 1980 قام بالتعليق في لدى أهم المثقفين في صفوف Le Débat مقال عنوانه "المستقبل المتأخر" على تحقيق قامت به صحيفة الشباب ولاحظ حينذاك زوال الماركسية واندهش فوق ذلك لنوع معين من النزعة الأولية للنرجسية ولغياب التفكير الاجتماعي والسياسي باستثناء كاتب واحد وجد فيه مشاركته نفس الأفكار بصورة كلية، وذلك بغض النظر عن الاختلاف بين الجيلين، وهو بيار روزنفالون. وبعد مضي خمس سنوات، أثنى في كتاب ألفه كل من لوك فيري وألان رونو، "فكر 68" على الموضوع المستردّ دون أن يفوت فرصة التأكيد على تفسيرهما المتحيز لحركة مايو 1968، وغياب الإشارة إلى سارتر وليفي ستراوس في دراستهما مع ملاحظة بعض الريبة في موضوع الخلاص من خلال تجريدية الفيلسوف كانت أو التجريدية الجمهورية.

ديغول وميتران

لقد أسرّ إليّ ذات يوم، بخصوص السياسة الفرنسية التي ما فتئت تثير اهتمامه والتي لم يخف أبدا مشاعر تعاطفه ونفوره إزاءها ولكن دون الدخول في لج معتركها وذلك بعد تجاربه في الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الاشتراكي الموحد وتعاونه العابر والتقني مع إدغار فور: "لقد هيمن عليها (السياسة) رجلان اثنان، ديغول وميتران، ولم أكن أحب أيا منهما". وقد يكون مرد ذلك إلى كونه كان يرى في كليهما شخصا مخادعا، أولهما على صعيد التاريخ والسياسة بمعناها الواسع، وثانيهما على صعيد المدى القصير والسياسة السياسوية. غير أن حكمه على الاثنين عرف تطورا فيما بعد: نحو الإيجابية بالنسبة إلى ديغول، بعد حرب الجزائر، ونحو السلبية بالنسبة إلى فرانسوا ميتران بعدما كشف هذا الأخير عن قلة احترامه للمؤسسات الجمهورية أكثر من منافسه الشهير.

وعلى مدى فاصل زمني قدره أربع سنوات أصبحت المقارنة بين النصين مذهلة للغاية. ففي النص الأول وعنوانه "لاعب الجيدو المدعو ميتران" (2 مايو 1991) نجد بعض التعاطف والتواطؤ: "وهكذا يرسم العالم الذي نعيش فيه دائرة يحدد بها نطاق جرأة الفكر. ولكن قد يكون ذلك من قبيل السجن العذب حيث تشعر الشعوب بالسعادة ويمكن أن يوظف الفكر ما ينطوي عليه الوقت المعاصر من وقف الاستثمار السياسي من أجل ضبط مرتكزاته. أما فيما يخص تاريخنا نحن الفرنسيين فإن سنوات حكم ميتران العشر تجسد رغم كل شيء الأسلوب العذب والمر في آن واحد، الابتذال السوداوي، والمعنى المسترجع في

."تعقيد الأمور والطابع النسبي في السياسة

وبعد انقضاء أربع سنوات صار السجن يبدو أقل عذوبة وصارت نبرة فيوري تعبر عن الانتقام. ولقد في عام 1995: "إن المساهمة النوعية Le Débat كتب في مقال "وقائع التعفن" الصادر في صحيفة للنزعة الميتراندية (نسبة إلى ميتران) في أزمة الديمقراطية التمثيلية تقوم على الخداع والإيهام، التي حاولت سلطة فاقدة للأفكار أن تجعل منها محميتها". كما كتب أيضا: "لقد قدم زوال الشيوعية من أوروبا ."للاشتراكية الميتراندية في النهاية المرآة التي تعكس لها انعدام وجودها الفكري والأخلاقي

ولما أصبحت المَلَكية تنزع أقل فأقل إلى أن تصبح ذات نزعة جمهورية وجرى الانتقال من هيمنة كارزمية إلى هيمنة المحاباة فإنه "صارت لدى ميتران، مسألة المزج بين الأنماط تزيد في تفاقم كل ما تنطوي عليه كلتا الهيمنتين من خطورة، فهما معا، أي النزعة الشمولية والمحاباة، يحملان في طياتهما رذائلهما على ."درجة عالية من الخطورة

ونرى أن فيوري المدافع عمّا هو معقد وما هو نسبي يصبح جادا أكثر من اللزوم لما يسيء الغموض الذي يشجعه الوضع ويغذيه رئيس الدولة إلى الحقيقة ويعرّض الديمقراطية للخطر. إن تعلقه بهذه الديمقراطية "كتجسيد سياسي للفكرة الجامعة" لا تتناقض أبدا (إلى درجة أنه بالرغم من إدانته الصريحة للشمولية الشيوعية وللتقارب المبالغ فيه أحيانا الذي يقيمه بين الأهواء الثورية والمناهضة للبورجوازية التي تنطوي على تلك الشمولية الشيوعية والأهواء التي تنطوي على الفاشية إلا أنه يذكّر دوما بأن الشمولية الشيوعية تعتبر مرض الشمولية بيد أن الفاشية تعتبر مرض الخصوصية). ولكنه كان دائما ملازما للوعي .التوكفيلي الذي قد يسبب البحث عن المساواة فيه خطرا على الحرية

ومع ذلك، فإن المشكلة الحقيقية التي يطرحها النصان اللذان يتطرقان إلى ميتران، والتي تنعكس على مجموع العمل الذي أنتجه فيوري، وكذلك حتى على عمل ريمون هارون، تظل كامنة –المشكلة- في محل آخر. ويتمثل الموضوع في إدراك مدى تأثير فقدان الأوهام الكبرى في احتمال ظهور المتوهمين في كل مرة وفي إمكانية عيش المجتمعات الديمقراطية في كنف " الابتذال السوداوي" والمعنى العذب والمر للتعقيد .والنسبية

الاستثناء الفرنسي

بغض النظر عن الحكم الصادر في شأن التجربة الميتراندية فإن رد فيوري على هذه المسألة قد عرف تحولا جذريا لافتا للنظر في الحالة الخاصة بفرنسا. ففي عام 1979، وفي سياق (فيما يخص المسألة اليهودية) كانت الليبرالية تأخذ فيه مدلولا خاصا وهو رفض الخصوصية، كتب تلك الجملة التي تثير إعادة قراءتها الضحك في وقت صارت فيه "الليبرالية" لفظا شائنا: "يوجد في باريس، مع نهاية عام 1979 هذا، نوع من الكبرياء في الفكر الليبرالي يبدو لي متناقضا مع روح الليبرالية". ونشر في عام 1988 على الخصوص بمشاركة بيار روزنفالون وجاك جوليار "جمهورية الوسط" تلك المقالة التي احتفى فيها كتابها الثلاثة بما يسمى "الاستثناء الفرنسي". ويكمن سبب ذلك في أفول الشيوعية والديغولية، اللتين هيمن تعارضهما وتواطؤهما على الجمهوريتين الرابعة والخامسة. ولكنها تبقى مع ذلك جزء لا يتجزأ من الإعلان المرفوع في "تصور الثورة الفرنسية" : لقد انتهت الثورة الفرنسية. كما كتب: "لقد أقفلت فرنسا مسرحها السياسي الاستثنائي، ودخلت في نهج الحق العام للديمقراطيات التي لا يقدم تاريخها أجوبة جاهزة بشأنها رغم عظمة هذا التاريخ". وبعد مضي تسعة أعوام، صارت حصيلة حكم فيوري مغايرة تماما في مقاله الأخير. فهو يأسف لحال الأحزاب الرئيسية، في فرنسا أكثر من غيرها، التي

تتمادى في إرساء قواعد هويتها على أساس التاريخ وتعالج مشاكل الحاضر بمنطق الماضي. "والحالة هذه، أن الفرنسيين عندما يلتفتون إلى ماضيهم يكون الخوف دوما من عاطفة الهوى التي يعتمدونها في تمجيد هذا الماضي للتملص من إجراء عملية جرد له". واختتم المقال الذي حرره بمناسبة اعتلاء ليونيل جوسبان منصب الوزير الأول، برسم صورة لفرنسا تمثل النقيض تماما لنهاية الاستثناء الفرنسي وبالدعوة إلى القطيعة. "إن انتخابه يضفي عليه صورة بلد ذي نزعة وسطية، مهووس بخصوصيته وبنظام حمايته الاجتماعية، وصار سرا من الأسرار بالنسبة للعالم في نهاية هذا القرن بسبب التمادي في تجاهل القوانين. هل يمكنه كسر هذه المرآة ووضع حد للانحدار؟ سوف ندرك أمر ذلك مع نهاية فصل الخريف".

ولقد أدركنا ذلك فعلا. ومع ذلك تبدو هذه السطور بعد عشرة أعوام كتكذيب جذري لأطروحة 1988 أقل ما تبدو استباقا تنبؤيا لوضعية عام 2005-2006 وبيئته الإيديولوجية.

غير أن المسألة الحقيقية تطرح بغض النظر عن الحالة الخاصة بفرنسا. وهي تتمثل في التساؤل عما إذا كان الاستثناء الفرنسي، مهما تكن خاصيته، لا يكشف لنا عن شيء ما يتجاوزه في حد ذاته ويبين حدود وغموض، وربما هشاشة، هذا "الحق المشترك للديمقراطيات"، "وقوانين العالم في نهاية هذا القرن". كما هي تعني العالم المعاصر الذي جاء في إثر الأنظمة الشمولية قاطبة. ولدراسة الموضوع عن قرب فلا بد من التطرق بصورة مباشرة إلى المصنف النهائي الكبير، "الزمن الماضي للوهم"، مع إنارته بدراسات فيوري ومساعديه التي انصبت على قدر الثورة الفرنسية بعد زوالها، واستكماله بأحكام صدرت بشأن تجارب ديمقراطية أخرى، مثل تجربة الولايات المتحدة. وسوف يمكننا ذلك، في نهاية المطاف، من التساؤل عما إذا كانت تجربة السنوات العشر التي تفصلنا عن وفاة فرانسوا فيوري تفند تفكيره أو تؤيده أو تسمح بالاستمرار فيه.

الدور المركزي للحقد على البورجوازية

إن مؤلف "الزمن الماضي للوهم" ينسجم خصوصا مع هذه الممارسة ما دام الأمر يتعلق بتاريخ تفسيري يستند إلى التفكير الفلسفي أكثر من استناده إلى الرواية أو تحليل الأحداث والبنى. وهو يشتمل لا ريب على فصول واقعية فعلا (مثل الفصل الذي يفضح استعمال الشيوعية لموضوع مناهضة الفاشية، على سبيل المثال) وعلى صور حية للغاية عن شهود المأساة (مثل بيار باسكال) أو لفاعلين (مثل موسوليني) وعلى عمليات وصف الأوساط (مثلما هو الحال في الفصل الباهر المخصص للثقافة المعادية للفاشية). ولكنه يبدأ بتحليل الأهواء الثورية وينتهي بالتساؤل عن المستقبل الطوباوي ومستقبل الديمقراطية.

إن منهجيته – التي لا تستثني بالطبع حالات الاستطراد واللف والدوران – تبدو لي أنها تتقاطع بالضبط مع البرنامج الذي بيّنه إيلي هاليفي في جامعة أكسفورد ضمن حلقة ندواته في عام 1922 وكان عنوانه "تفسير الأزمة العالمية لعام 1914-1918" بقوله: "إننا لم نركز اهتمامنا على تصرفات رئيس الدولة الفلاني أو العلاني أو على حوادث التاريخ الدبلوماسي بل ركزنا اهتمامنا على حركات الرأي العام في مجموعها، وعلى تلك القوى الجماعية التي كانت تعمل في سبيل القطيعة، قبل أن تندلع الأزمة". إن تلك القوى تتمثل على الخصوص في العواطف، القومية والقتالية من جهة، والدولية والثورية من جهة أخرى. واقترح هاليفي وقتها "منهجية جديدة للتطرق إلى مثل ذلك التاريخ، من خلال دراسة الفعل والتفاعل لدى تلك القوى الجماعية". ولقد طبق ذلك على الروابط بين الحرب والثورة وبالصورة التي تترابطان من خلالها لكي تنتجا "عهد الاستبداديات" الذي هو في الوقت نفسه عهد "العواطف المتعصبة وغير المغرضة"، في "تنظيم الحماسة والحمية" وفي "تأبيد نظام الحرب في زمن السلم".

واستعمل ريمون هارون مرة أخرى في مؤلفه "الحروب المتتابعة" موضوع تتابع الحروب والثورات وكذا موضوع "جدلية النقيضين" كما استعمل في مؤلف "أفيون المثقفين" دور التصورات والخيال، ولا سيما لدى المثقفين الذين يتحسسون الإغراءات الإيديولوجية.

ويشتمل "الزمن الماضي للوهم" على الخلاصة الأوفى على الإطلاق للمواضيع الثلاثة التي يشترك فيها فيوري مع هاليفي وهارون؛ وهي دور الحرب العالمية 1914-1918، كقالب القرن العشرين كما كانت الثورة الفرنسية قالب القرن التاسع عشر؛ والعلاقات بين الأخوين العدوين وهما الشيوعية والنازية، وسر إغرائهما ولا سيما استمرار هذا الإغراء، على الأقل بالنسبة إلى الشيوعية، وعلى كل حال على مدى فترة معينة من الزمن وبصور متغيرة رغم صور الغش في الواقع وعلى مستوى الأخلاق. ومع ذلك فإن إلهامه يتأتى من مصدر بعيد جدا، وهما توكفيل وروسو. وتكمن مساهمته الشخصية أكثر في موضوع الأهواء الثورية في كونه يسند الدور الرئيسي للحقد على البورجوازية.

لا بد من قراءة وإعادة قراءة الفصل الأول الخارق للعادة من "الزمن الماضي للوهم" حيث تذهل كل جملة فيه بمهارة عالية وتدعو قارئها إلى التمعن في عمقها. ويركز فيوري في هذا الفصل على "الطابع المتناقض على خلاف ما هو مألوف للبورجوازية، التي تمثل الاسم الآخر للمجتمع العصري، التي ليست لها مكانة مخصصة في نظام الشأن السياسي، أي في المجتمع. بل هي تستمد وجودها من الشأن الاقتصادي وهو الصنف الذي تخترعه هي ذاتها عندما تظهر إلى الوجود. وهكذا ينفصل المجتمع البورجوازي بحكم تعريفه عن فكرة الملك المشترك. إن البورجوازي هو فرد منفصل عن أمثاله ومنغلق في مصالحه وممتلكاته.

غير أن مشكلة البورجوازي، ومن ورائها مشكلة المجتمع العصري، لا تتوقف عند هذا الحد. إذ يضيف فيوري: " إنه (البورجوازي) منعزل ومنغلق، وهو أكثر من ذلك بحيث أن ولعه الدائم يتمثل في مضاعفة بُعد المسافة التي تفصله عن الناس الآخرين: ثم ما معنى أن يصبح المرء غنيا إن لم يكن الاغتناء أكثر من جاره؟" ومن ثم "يتأتى الهوى القلق من المستقبل" الذي قام توكفيل بتحليله، وهي "تلك المقارنة التي يجريها بينه وبين الآخرين من أجل تقويم ذاته من خلال الإعجاب أو الحسد أو الغيرة من الآخرين" والتي تمثل حب الذات لدى روسو. ولكن يترتب على ذلك "اضطراب يعمق هوة التناقضات الموجودة في كيانه أصلا. ولا يكفي هذا المجتمع البورجوازي أن يكون مؤلفا من شركاء لا يكترثون إلا قليلا للمصلحة العامة، بل يرغبون أيضا في أن تكون فكرة المساواة الشاملة بين البشر، التي تتباهى بها على أنها أساسها الذي تقوم عليه وأنها الشيء الجديد الذي ابتكرته، محل جحود باستمرار من خلال اللامساواة في الممتلكات والثروات التي تنتج بفعل التنافس بين أفراد البورجوازية. إن حركتها تناقض مبدأها وحركيتها تفند مشروعيتها. وهي لا تتوقف عن إفراز اللامساواة في الوقت الذي تتباهى فيه بالمساواة كحق من حقوق الإنسان غير القابل للتقادم.

إن هذه التناقضات، التي لم يكن لينكرها ماركس، تفضي في النهاية إلى حركية أزمة متزايدة في الاستفحال. ولا تتجسد هذه الأزمة قبل أي شيء على الصعيد الاقتصادي بل تتجسد على صعيد السياسة والثقافة، ومن ورائها على صعيد الأحلام الطوباوية والعواطف. وما الفرق بين الولايات المتحدة وأوروبا، ولا سيما فرنسا، إلا أوضح دليل. "إن موطن الرأسمالية بامتياز، ألا وهي الولايات المتحدة، لم تكن لديه بورجوازية بل كان له شعب بورجوازي، والفرق كبير جدا. أما ما كان لفرنسا العصرية من بورجوازية عن وعي وإدراك فإنه يفسر قبل كل شيء من خلال التصرفات السياسية والثقافية. ولقد أنشأ المجتمع السياسي الفرنسي بورجوازية لم تكن لها الروح الرأسمالية.

ومن هنا يتأتى، في آن واحد، ما يوجد في أمريكا وأوروبا من شأن مشترك وشأن مختلف بينهما. ويبين

فيوري "التشابه العميق لحالات الشغف بالمساواة في هذين البلدين؛ إذ أن انتقاد الديمقراطية باسم الديمقراطية مع نهاية هذا القرن العشرين هو هاجس مسلط على الولايات المتحدة بنفس القدر الذي هو مسلط على فرنسا أو أوروبا عامة". غير أن الأمريكيين، حتى المعاصرين منهم، لم يقوموا أبدا بتغذية هذا الشغف، الذي يعتبر أم الديمقراطية المعاصرة، بالحقد على البورجوازي: بحيث أن هذه الصورة غير موجودة، أو نادرة الوجود، في مواجهات الأمريكيين السياسية الذين يفضلوا أن يسلكوا سبلا أخر وتحدوهم رموز أخر. ولكن هذا الهوى موجود على العكس بكثرة في السياسة الأوروبية منذ قرنين من الزمن، وهذا الهوى أو الشغف هو الذي يسمح بتحديد الهدف المشترك بين جميع البؤساء بسبب العصرنة: سواء أولئك الذين يجرّمون عصرنة العالم البورجوازي أو أولئك الذين يلومون البورجوازية على بهتانها. وتكمن المأساة في أن القاعدة نفسها هي التي تتحكم في الرأسمالية وفي الحرية العصرية في آن واحد: وتلك هي مأساة الحرية، وبالتالي التعددية في الأفكار والآراء والشهوات والمصالح. ويتقاسم الليبراليون والديمقراطيون هذه الحرية لكونها موجودة ضمن أسس تصوراتهم، ولكن الرجعيين والاشتراكيين يرفضونها باسم الوحدة المفقودة للإنسان والإنسانية. وتصبح جميع المواد الثقافية مباحة في يد من يرغب في مكافحة التمزق البورجوازي. إن السؤال الذي طرحه روسو وأعادت تحيينه التجربة الثورية القريبة منا جدا، موجود في صلب فلسفات اليمين واليسار على حد سواء، ونجدها لدى بونالد ولدى لويس بلان على حد سواء أيضا، لما قال: "إذا كنا جميعا مجرد أفراد، إذن أي نوع من المجتمع يمكن "أن نكوّنه؟

وهكذا يلاحظ السبب الذي دفعني إلى تكريس عدة صفحات من أجل إعادة إجراء تحاليل وصيغ يجد القارئ أنها وردت بقلم فيوري نفسه، وهذا السبب هو أن تلك التحاليل والصيغ تبدو لي عبارة عن مفتاح "الزمن الماضي للوهم" والموقف السياسي النهائي لمؤلفه. ويبين ذلك كم يكون من البلادة النظر إليه على كونه رجعيا ومدافعا عن البورجوازية، إذ أن الحقد على البورجوازية المشتركة في وجهة نظره مع الفاشية أو الشيوعية، تتغذى من عجز هذه البورجوازية ذاتها في إضفاء شرعية على نفسها كطبقة رائدة أو قائدة (وهذا ما يشترك فيه فيوري مع شومبيتر في الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية ومع دانيال بيل في التناقضات الثقافية للرأسمالية) وما دامت شمولية اليمين واليسار تستمد موردها من عجز الليبرالية على .الرد على القضايا الأساسية في السياسة العصرية: وهما قضايا الوحدة والمساواة

الشيوعية والفاشية: من الوهم إلى الجرم

لا شك أن وصفه للبرجوازي الذي لا يتوقف أبدا عن محاربة نفسه أو مجابهة كره ذاته ينطبق أساسا على المثقفين (الذين هم في نهاية الأمر موضوع كتابه) ولا ينطبق بالضرورة على البرجوازيين المنتصرين أو المرتاحين الذين سيطروا على القرن التاسع عشر وعرفوا كيف يدافعون عن أنفسهم إما من خلال القضاء على أعدائهم وإما بامتصاص غضبهم. ولا شك أيضا في أنه، من خلال التأكيد بوضوح على الأهم (الفاشية كمرض الخصوصية، والشيوعية كمرض الشمولية) لم يتمكن ربما من التأكيد بالقدر الكافي على أن هؤلاء يمقتون البورجوازية لأنها تمثل حكم السوقة وانهيار نظام التدرج التراتبي وزوال نخبة الأبطال، .وأن أولئك يمقتونها للسبب المناقض تماما: وذلك لكونها تخون العهد بالمساواة الكاملة الشاملة

ويمكن أن نقوم بالنقد نفسه للملاحظة، الصحيحة والثاقبة، القائلة بأن الشيوعية والفاشية تطورتا ووصلتا إلى السلطة في أعقاب الحرب 1914-1918: بحيث أن فيوري لا يلح من دون شك بصريح العبارة على أهمية الحنين الوطاني إلى الحرب، بالنسبة لنجاح الفاشية، وعلى معارضة هذه الفاشية، بالنسبة إلى الشيوعية. غير أن كل ذلك لا يشكك في مدى صحة حقيقة أعمق، وهو أنه في كلتا الحالتين كان الأمر يتعلق بمذاهب الحرب، الموجهة في الحالة الخاصة بالنازية ضد العالم الخارجي وضد مجموعات أو

عرقيات خاصة ترى أنه لا بد من القضاء عليها، أما فيما يتعلق بالحالة الخاصة بالبلشفية فالأمر يتعلق بمحاربة عدو طبقي منتشر وحاضر في كل مكان ومتجدد باستمرار ويفضي كل ذلك إلى ما سماه نيكولاس ويرث "حرب الأمة على شعبها". وأن يكون ذلك مذهبا نابعا من إيحاءات عالمية ومساواتية وسلمية تؤدي في النهاية إلى ممارسة تسلطية وعنيفة بصورة فظيعة فتلك هي فضيحة القرن العشرين الأكثر تناقضا، غير أن ذلك يفسر أيضا الظاهرة التي قام فيوري بدراستها: وهي تلك الشراسة في التمادي في الوهم المتمسك بالنيات الإيديولوجية الأصلية من أجل إنكار مآلها الإجرامي أو إيجاد مسوغاته.

وبصورة أعم، فإن دور هذا الفصل الأول يتمثل في تسليط الضوء على انتقال مذاهب أو إيديولوجيات في طور التكوين، من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، وتحولها إلى حركات وثورات في طور الفعل وذلك خصوصا من خلال جناح لليمين صار بدوره حركة جماهيرية ثورية.

أما فيما يخص الحالة المتعلقة بالفاشية أو النازية فإن فيوري يعزو هذا التحول قبل كل شيء إلى تجربة الحرب. وهو يرفض بشدة، في حواره مع إرنست نولت، أن يرى في ذلك على الخصوص رد فعل منه على البلشفية. ولكنه يسرد بالتفصيل طوال "الزمن الماضي للوهم" تلك المواجهة بين حركتين شموليتين من خلال الحروب والثورات، وكل منهما يبرر سلطته بأولوية محاربة الآخر، إلى غاية سحق هذا وإنهاك قوى ذلك، بانتصار تلك الديمقراطية الليبرالية المقوتة جدا، وتلك الرأسمالية المشهّر بها، وتلك البورجوازية البغيضة كل البغض.

ولْندع القارئ يكتشف في "الزمن الماضي للوهم" فصول التقلبات الإيديولوجية لتلك الحرب المثلثة الجبهات (التي سبق أن حللها ريمون هارون في "الحروب المتتابعة" وركز فيها خصوصا على الجانب السياسي والإستراتيجي ومات قبل أن يشهد خلاصة عمله) ولْنركز اهتمامنا مباشرة على الصفحة الأخيرة الشهيرة من الكتاب، التي تردد صدى ما ورد في الفصل الأول، حيث يصور المشهد الذي خلفته الحرب.

يلاحظ فيوري في البداية أن انهيار الاتحاد السوفييتي قد ترك الكثير من اليتامى – "كما لو أنه قد تم سدّ أفسح السبل التي لم يسبق أن أُتيح بمثلها للإنسان المعاصر في مجال الهناء الاجتماعي. [...] وكان على الأنظمة الشيوعية أن تفسح المجال في بضعة شهور للإيديولوجيات التي كانت ثورة أكتوبر تعتقد أنها تقضي عليها وتحل محلها: وهي الملكية الخاصة، والسوق، وحقوق الإنسان، والنزعة الدستورية "الصورية"، والفصل بين السلطات- أي المجموعة الكاملة التي تتألف منها الديمقراطية الليبرالية. ومعنى ذلك أن الفشل كان فشلا مطلقا بحيث قضى نهائيا على الطموح الأصلي".

ويضيف فيوري على ذلك: "غير أن ذلك لم ينل من الشيوعيين والمتشيوعين فحسب، بل تجاوزهم ودفع إلى ضرورة إعادة النظر في القناعات الضاربة بجذورها في القدم قدم اليسار في الغرب، بل وحتى في الديمقراطية أصلا. وذلك بدءا من "منحى التاريخ" الشهير [...]. وبعدما تم حرمان الفرد الديمقراطي من إلهه وجد في نهاية هذا القرن أن ألوهية التاريخ قد ارتجت قواعدها: وذلك هو القلق الذي يجب عليه أن يتحاشاه".

وصية فيوري

ويُضاف إلى نذر الشك والريبة هذا هاجس القلق من مستقبل مسدود. [...] أما نهاية الشيوعية فتحصر"

هذا القلق، على العكس، في صلب التناقض الجوهري للديمقراطية البورجوازية. وهكذا، تكتشف أطراف متكاملة ومتناقضة من المعادلة الليبرالية وحقوق الإنسان والسوق، وكأنها وليدة الأمس فقط، وبذلك تعرض للخطر جوهر ما ظل يمثل المسيحية الثورية على مدى قرنين من الزمن. وأصبح تصور فكرة المجتمع الآخر شبه مستحيل، وزيادة على ذلك فإنه لا يوجد من يفكر في هذا الموضوع، في عالم اليوم، ولو من قبيل تصور مفهوم أولي جديد. وها نحن محكوم علينا بالعيش في العالم الذي نعيش فيه".

وهناك أيضا ما ورد في صياغته لآخر خطاب أرسله إلى إرنست نولت، في السنة التي توفي فيها: "هكذا هي الخلفية السوداوية لنهاية هذا القرن. وها نحن منغلقون ضمن أفق وحيد للتاريخ ومنجرفون نحو توحيد نمطية العالم واستلاب الأفراد بالاقتصاد، ومحكوم علينا بتخفيف تسارع الآثار دون التحكم في أسبابها".

وها نحن، كما قد يتبادر إلى أذهاننا، في الأوج (أو في الدرك الأسفل، حسبما يبدو لنا) من الاستكانة المغلفة بلون باهت من الارتياح المحافظ. ولكن سرعان ما يفاجئنا فيوري مرة أخرى، حيث كتب: "إنه شرط قاس للغاية ومناقض تماما لروح المجتمعات العصرية وهو بذلك غير قابل للاستمرار. إن الديمقراطية تصنع لمجرد وجودها الحاجة في بلوغ عالم ما بعد البورجوازية والرأسمالية، حيث يمكن أن تتفتح وتزدهر مجموعة إنسانية حقيقية. [...] غير أن زوال الاتحاد السوفييتي لم يغير أي شيء في أمر الطلب على الديمقراطية من مجتمع آخر، ولهذا السبب بالذات سيظل هذا الإفلاس الواسع النطاق يتمتع بلا شك بالظروف المخففة لدى الرأي العام في العالم ومن المؤكد أن يحظى بالإعجاب من جديد. ولا يمكن أن تظهر الشيوعية بالصورة التي انتهت بها. [...] ولكن زوال وجوهها المألوفة في قرننا هذا يختتم حقبة من الزمن أكثر ما يقفل نهائيا سجل الديمقراطية".

وها هي الباب مشرعة في نهاية المطاف، إلى حد ما، على ما يسميه كلود لفور "الاختراع الديمقراطي" مع تفاؤل أقل من تفاؤل فيوري.

إن ما يثير الدهشة في خلاصة "الزمن الماضي للوهم" تلك، والتي أضحت بمثابة وصية فيوري، هو توفيقه المذهل بين الراديكالية والتعقيد. ويوجد في ذلك إقرار بات، بلا جدوى وبلا أسى، بفشل التجربة السوفييتية، ومن وراء ذلك فكرة الشيوعية ذاتها. كما يوجد، بصورة أعم، رفض لفكرة معنى معين للتاريخ، محدد بالسببية وبالغائية، ولفكرة مجتمع خال من التوترات والتفاوتات والنزاعات وكفيل بتحقيق شامل للوعود بالحرية والمساواة والإخاء التي تحويها فكرة الديمقراطية، مجتمع تكون فيه الديمقراطية الحقة، بعبارات أخرى، منسجمة مع مفهومها. ويوجد في النهاية تمسك شديد بفكرة الديمقراطية كشكل سياسي عصري وحيد يتماشى مع أفكار العالمية والحرية والعدالة.

وانطلاقا من هذه النقطة انتشرت جدلية تخللت مجموع الصفحات المركزة جدا في تلك الخلاصة، ولقد طبقت هذه الجدلية، سواء بصورة ضمنية أو صريحة، على كل ما تم تأليفه من كتابات في هذا المجلد.

أولا، إن هذا الديمقراطية الليبرالية التي تمثل الأفق الذي لا يمكن تجاوزه في زماننا هذا، على عكس ما كان يراه سارتر، وبدلا عن الماركسية، هي ديمقراطية غير مُرضية ومثبطة، بسبب التوترات الموجودة ضمن مكوناتها الجوهرية، وبسبب التناقض الأساسي في مجال حقوق الإنسان والسوق، وبسبب انعدام الأمان لدى الفرد الديمقراطي وذلك بفعل التفاوتات التي أفرزتها المنافسة الرأسمالية التي ترتبط رغم ذلك بالتعددية السياسية وهي جزء لا يتجزأ منها.

ثانيا، تجد ضمن هذه النقائص والتوترات مكانة ممكنة ولازمة للعمل السياسي وللإصلاح الاقتصادي والاجتماعي وهي ضرورية للتخفيف من حدة هذه النقائص والتحكم في هذه التوترات.

ثالثا، يلاحظ فيوري زيادة على ذلك وجود أزمة في العمل السياسي يكون مردّها أساسا إلى استمرار مسار ماض لم تتم إعادة النظر فيه، ومردها إلى حد ما الظروف الخاصة لهذا البلد أو ذاك، بدءا بفرنسا والولايات المتحدة، ولكن إلى حد ما أيضا إلى عجز الليبرالية السياسي الوراثي.

رابعا، إن هذا العجز يجعل بعث الأحلام الطوباوية الثورية أمرا حتميا وأحيانا لازما. غير أن هذه الأحلام ليس لها من دور إيجابي إلا إذا كانت أحلاما صغيرة ومحدودة، وإلا انجرت عنها عملية الترهيب أو الاستبداد الجنونية والمخزية.

خامسا وأخيرا، يوجد في المرحلة الراهنة معنى حقيقي لأي تمثيل "لمجتمع آخر" أو لحلم طوباوي إيجابي. ومن ثم تتأتى ظاهرة الحركات الثورية التي تفتقد إلى كل أفق ثوري.

ولقد جمع فيوري أثناء العقود الأخيرة من عمره، بعدما كان قد تحرر من كل حنين إلى الرومانسية الثورية وكل طموح في احتراف مسار سياسي، طموحين اثنين وهما الطموح الفلسفي أكثر فأكثر في العودة إلى منابع الشمولية العصرية، والطموح في المساهمة، على أنقاض هذه الشمولية، في بعث سياسة واقعية وإصلاحية.

في سبيل سياسة مستنيرة

يتعلق الأمر، بعد المرور بتجربة مأساوية على مدى خمسة وعشرين قرنا، في تقصي الأسباب التي جعلت ذلك ممكنا، وذلك من أجل الانطلاق انطلاقة سليمة في انتهاج سياسة تحترم بغض النظر عن الإيديولوجية، استقلالية كل من الجانب النظري والجانب العملي مع الحفاظ على بقاء الحوار اللازم بينهما.

فمن جهة، أصبح يصادف من خلال التفكير في مصير الثورات أهمية البعد الديني أكثر فأكثر. ومن جهة أخرى، لم يتوقف عن تشجيع التحاليل والتجارب التي يمكن أن تبعث النقاش والحياة السياسية والاجتماعية مجددا: وهذا هو منحى مؤسسة سان سيمون التي ليست بؤرة تحاك فيها الدسائس السياسية بل فضاء للتفكير والحوار بعيدا عن المحرمات الشخصية والإيديولوجية على حد سواء.

ويوجد تفكير فيوري الشخصي، زيادة على أشكال الحوار التي شجع عليها، مسطرا في مقالته الشهيرة عام 1990 عن "الأوراق اليابسة للطوباوية". ولقد كانت نقطة البداية رهانا في سبيل سياسة مستنيرة: "لا توجد حتمية في أن يكون المواطنون المعاصرون مضطرين إلى الاختيار بين التفرغ لشؤونهم الخاصة أو النضال من أجل أفكار متهورة". وهو يدعو، لتفادي هذا الاختيار إلى إعادة دراسة عميقة للثقافة السياسية التي تعيشها أوروبا منذ قرابة قرنين من الزمن. "لقد أصبحت الفكرة الديمقراطية هي القاعدة السائدة ولكنها تعرضت إلى ما يشبه الزلزال بحلول مناسبة الاحتفاء بها. إذن، كيف السبيل إلى الخروج من ذلك [...]؟ من الروابط الموجودة بين المسيحية والديمقراطية وبين الجمهورية والتقدم، وعلاقة المواطنين بالدولة، وجدلية الحقوق الصورية والحقوق الاجتماعية، وعدوانية الإنسان المعاصر إزاء الطبيعة، وما تزال القائمة طويلة ومليئة بالأسئلة الكبرى التي يمكن طرحها في المستقبل بنفس الكيفية التي كانت تطرح بها في الماضي. وليعلم الذين يرغبون في التفكير في هذا الموضوع أن العمل متا زال طويلا وشاقا".

ومع ذلك فإن السنوات القليلة التي كانت تفصل بين هذا البرنامج ووفاة فرانسوا فيوري كانت سنوات ملؤها الخيبة.

لقد لاحظ بأن فرنسا لم تتمكن من التخلص من أوهامها الخرافية التي تشل حركتها، أو هي التي لم ترغب في التخلص منها. وكان يرفض من البداية، أن يرى في "الثورات المخملية" في بلدان أوروبا الشرقية الشيوعية، مهما كان تعاطفه مع من قاموا بها، أمرا مغايرا إلا استعادة نماذج سابقة للشيوعية أو نماذج موجودة في الغرب. ولقد أثبت تطور مجتمعات تلك البلدان أن رأيه كان في محله. كما خصص لإسرائيل تحاليل ودية وواضحة، ولكن ليس من المؤكد أن طابعها الديمقراطي سيتمكن من التخلص من الهجمات الداخلية والخارجية، للنزعة القومية والدينية.

وكان قد تابع في البداية بتعاطف مشوب بالسخرية في الغالب تطور الولايات المتحدة التي كان يقضي على ترابها في كل سنة فصلا كاملا. وأثنى على محاولات كارتر وكلينتون في مجال تجديد الديمقراطية الأمريكية. وقام على الخصوص بتحليل النزعة المناصرة لقضايا المرأة الأمريكية وأسلوب ما يسمى "المقبول سياسيا" باعتبارها تعابير أصيلة، أمريكية خالصة، عن الأهواء الأمريكية. غير أنه قام فيما يخص هذه الحركات بالذات بصياغة تشخيصه للظاهرة على كونها تتعلق بأهواء ثورية ينعدم فيها الأفق الثوري، أي بمعنى عدم وجود تمثيل حقيقي لمجتمع آخر فيها. ثم جاءت مغامرة "المناهضين للعولمة" الذين يقدمون أنفسهم على كونهم "أنصار عالم مغاير" ويؤكدون أن" وجود عالم آخر ممكن جدا" ولكنهم لا يقدمون ولو مجرد محتوى لما يؤكدونه، لكي تؤيد تحليله بشكل لا مراء فيه.

ومع ذلك، وتلك هي النقطة الأساسية، كان فيوري متشائما أيضا بشأن حالة السياسة المعتدلة والواقعية التي كان يأمل في حدوثها. وفي الواقع، كان قد كتب في نهاية عام 1994 في بضعة سطور ورد فيها ما يشبه التنبؤ وخصصها "للديمقراطية المجنونة" في الولايات المتحدة، "إن الساحة الأمريكية، على غرار الساحة الأوروبية أيضا، تعوزها الأفكار السياسية. ومع ذلك، وعلى عكس سمعتها المعروفة، فهي غنية بصنوف التطرف: بين "ما هو مقبول سياسيا" لدى تيار اليسار، والأصولية المستمدة من التوراة والإنجيل لدى تيار اليمين. غير أن تلك الإيديولوجيات، المحصورة في أوساط الأقلية في داخل كل معسكر، تستمد تأثيرها من عدم وجود أي شيء جوهري يفرق بين هذا التيار أو ذاك. بحيث تقوم حالة الاحتراب بينهما بملء فراغ ما دون التوصل إلى تقديم حل لأي مشكل، إلى الحد الذي يجعل رجال الإيديولوجية في كلا الطرفين يقدمون صورة كاريكاتورية عن الحزبين الكبيرين ويجعلون من السياسة محض آلة صنع خيبة الأمل".

إن " آلة صنع خيبة الأمل" هذه كان من الممكن أن يكون فيوري آخر من يندهش لكونها تنتج إما زوال التسيس لتفسح المجال بذلك لانتشار النزعة الحرفية والشعبوية والألاعيب الانتهازية الوصولية، الراشية والنزاعة للرشوة من جميع الأصناف، وإما أحلاما طوباوية ثورية خالية من كل مضمون، ولكنها تستمد طاقة عنف عدمي من طابعها المجرد نفسه. إن صِدام النزعات الأصولية وأزمة سياسات اليمين واليسار، أمام ظاهرة العنف وأمام الآثار الاجتماعية للعولمة في آن احد، المهيمنين على الساحة الدولية، كان قد أكدها موقف فيوري المعقد والحذر أمام تلك الظاهرتين الكبريين والمتلازمتين اللتين كرس لهما أهم ما في كتابه: الطوباوية والثورة.

إنه يعتبرهما أحيانا كظاهرتين لا مناص منهما، في كلتا الحالتين، وذلك كرد فعل لوضع قائم لا يطاق ومسدود الأفق، وكذلك كعوامل ضرورية أحيانا للتقدم. غير أنه، كما عبرت عن ذلك هانا آرندت في كتبها

المخصصة للعنف، كان يخاف كخوفه من داء الطاعون أن تشتد تلك الظاهرة ويستشري شرها.

ولقد اعترف منذ عام 1986، في حوار له مع منى أزوف وجاك جوليار وجان دانيال، في هذا الصدد قائلا: "أحسّ بأني شخص غامض ومراء، ولا أعتقد أن الأمر كان من الممكن أن يكون مخالفا لما هو عليه. ولا يمكن أن ننكر الظاهرة الثورية، مع أنه، بحكم تعريفها، من المستحيل تصورها من الناحية القانونية. إذ من المحبذ، من جهة، أن يجري التطور التاريخي في منأى عن الثورة. ولكن لا يمكن أن نستبعد هذه الظاهرة من جهة أخرى، في بعض الوضعيات [...] ولكني أعتقد رغم ذلك أن من مصلحة الثورات ألا تكون إلا ثورات ظرفية قدر الإمكان. وأسوأ الحالات هي حالة الثورات الطويلة الأمد جدا وغياب القانون فيها إلى ما لا نهاية. إن مشكلة الثورات تتمثل في التوصل إلى إيجاد نهاية لها."

ومع ذلك فهو يدرك جيدا، كما يصف ذلك ماكس فيبر فيما يخص المادية الجدلية، أن الثورة "ليست عربة يمكن النزول منها متى شئنا." وهو يدرك، كما أظهر ذلك المثال الخاص بروسيا، أن نهاية الثورة لا تعني بالضرورة نهاية غياب القانون. كما هو يدرك، مع توكفيل، أن الأهم أثناء المراحل التي تعقب الثورات التي تكون هادئة في الظاهر، كما في مراحل غليانها وذروة اشتدادها، هو الحفاظ على حياة "الرغبة الجامحة في الحرية" واحترام القانون وهما الترياق الأوحد للأهواء الدنيئة والهائجة. ولكنه يدرك أيضا أن الإنسان لا يعيش بالحرية والقانون فقط. فهو يتمتع برغبة كبيرة وحس أكبر في السياسة إلى درجة تجعله يحصرها في وضع الاحتجاج الأخلاقي الدائم، أو يؤسسها فقط على قاعدة حقوق الإنسان أو التعاطف الإنساني.

وكان فيوري قد بدأ، في نهاية حياته، الاستعداد لتأليف كتاب عن نابليون. ولا شك أن ما كان يستهويه قبل أي شيء، كان الطابع الخارق للعادة وغير المتوقع في قدر شخص، من جهة، وإدراج كل ذلك ضمن استمرارية الاستثناء الفرنسي، من جهة أخرى. وعلى العموم، فهو لم يكن مدفوعا أبدا بتمجيد الرجال العظماء أو بشيء من قبيل الرغبة البونابارتية أو الحنين إلى المغامرة العسكرية. ولكن لا يمكن أن أصرف النظر وأنا أختتم هذه الخلاصة عن إثارة النهاية التي آل إليها نابليون في كتاب جورج لوفيبر، وهو مؤرخ كبير أيضا في الثورة الفرنسية، الذي يسرد مقطعا شهيرا من كتاب المجتثين لمؤلفه بارس. ويشاهد فيه سبعة أبطال، من الشباب الضائع في خضم مجتمع وضيع وفاسد، يبحثون وهم يزورون قبر نابليون في مدفن عظماء فرنسا عن"أستاذ في الطاقة" ويحلمون بما يحملهم فوق هؤلاء، هل هي "البديهيات أم الدين أم أمير القوم."

ربما كان فيوري يشعر، بغموض أو بلا وعي، أن بانتهاء الثورات يمكن أن يصبح المستقبل، ليس كما كان يتمناه، ملكا "للحق العام للديمقراطيات" بل ملكا لمن يصعد من الأنبياء الجدد والقياصرة الجدد. وربما كان يحس بنفسه في الوضعية نفسها التي كان عليها المعاصرون لنابليون الذين تعلق بهم، مثل بنجامين كونستان وشاتوبريان، أو خلفاؤهم مثل توكفيل وكيني، أو خلفاء خلفائهم مثل هاليفي وهارون: عبارة عن مشاهدين وأحيانا فاعلين في الاضطرابات والمغامرات التي يدركون مصدرها، والتي يمكن أن تعجبهم فيها فضيلة التغيير والعظمة، ولكنهم يستنكرون فيها خصوصا المخاطر التي تتهدد السلام والحرية.

ومهما يكن من أمر، فإن الدرس الذي يلقننا إياه ويبينه بوضوح وجلاء هو الآتي: لا يوجد لمواجهة "الزوابع الجديدة التي بدأت تتشكل"، وهو يتحدث بالصورة التي كان يتحدث بها شاتوبريان، من سلوكيات أشرف وأهدأ وأسلم، بغض النظر عن كل الحدود، من سلوك الليبرالية السوداوية.

تمثل هذه الدراسة التي قام بها بيار هاسنر مقدمته في نشر الكتابات السياسية لفرانسوا فيوري التي تصدر خلال هذا الفصل من السنة ضمن مجموعة بوكان، عن دار نشر لافون، بعنوان: تصور القرن العشرين (1184 صفحة). ونتقدم بجزيل الشكر للناشر والمؤلف اللذين تفضلا بالترخيص لنا بإعادة نشرها وتقديمها لقرائنا.

انظر هذه النصوص في كتاب الثورة الفرنسية، دار نشر غاليمار، مجموعة "كواترو"، *2007*
.ورشة التاريخ، دار نشر فلاماريون، *1982*، ص. *30-31*
.يتعلق الأمر بليونال جوسبان

Revue des revues, sélection de décembre 2007

Pierre Hassner : « François Furet et le libéralisme mélancolique »
article publié initialement dans *Commentaire*, printemps 2007.

Traducteurs :

Anglais : Vandana Kawlra
Arabe : Selmane Ayache
Chinois : Yan Suwei
Espagnol : Arturo Vázquez Barrón
Russe : Ekaterina Belavina

Droits :

© *Commentaire* pour la version française
© Vandana Kawlra /CEDUST de New Delhi
© Selmane Ayache /Bureau du Livre de l'Ambassade de France en Algérie pour la version arabe
© Yan Suwei /Centre culturel français de Pékin pour la version chinoise
© Arturo Vázquez Barrón /Institut français d'Amérique latine pour la version espagnole
© Ekaterina Belavina /Centre culturel français de Moscou pour la version russe